القصد في اعمال الناس امر اساسي في علم النفس (١)

نحن المشتغلين في مختلف الابحاث النفسية يسرّنا ان العلم الذي نشتغل به يرتقي ارتقاء سريعاً ويمدّ نفوذهُ الى كل عمل من اعمال الناس . فالشاء فرع السيكولوجيا (علم النفس) في مجمع تقدم العلوم البريطاني وارتقاؤهُ من اكبر الادلة على ان رصفاءنا في سائر فروع العلم الطبيعي يعترفون بمقام علم النفس بين العلوم . ومع ان المناصب لاساتذة هذا العلم لا تزال قليلة في جامعات بريطانيا نرى ان في جامعات كندا والولايات المتحدة مجالاً واسعاً للاساتذة والطلبة والباحثين فيهِ وهم لا ينون عن الجري في مضمارهِ . لكن رغماً عن هذا التقدم يساورنا قلق من حيث مقام علمنا بين العلوم ويخيفنا ان لا يحسب السيكولوجي باحثاً علميًّا مثل سائر العلماء ولهذا القلق اثر غير محمود في ترقية علم النفس يظهر في جهتين

نجد في الجهة الواحدة جماعة من علماء النفس تحركهم الرغبة في تحديد مجال خاص لابحاثهم فيعرّفون علم النفس بعلم الوجدان (Consciousness) ويقتصرون على وصف حالات الوجدان وصفاً تحليليًّا كأنهُ صور مركبة او وحدات صغيرة او عناصر بسيطة وهذا هو العلم المعروف بعلم النفس التركيبي

وفي الجهة الثانية جماعة اخرى ترى ان الاقتصار على وصف حالات الوجدان وصفاً تحليليًّا كيفما وصفتها امر لا قيمة لهُ في فهم طبيعة الانسان وتصرفاتهِ ولا يصحّ للذين يقولون بهذا الوصف ان يجعلوا منهُ علماً مستقلاً . هذا ما تقولهُ الجماعة الثانية عن الرأي الاول ولكنها هي ايضاً تتطرف في رأيها فتغضي عن الحقائق التي تقول الجماعة الاولى انها مجال علم النفس الخاص وتتوسل في درس الانسان بوسائل الملاحظة والوصف والتفسير التي عليها المدار في العلوم الطبيعية حاسبة انها تردّ بذلك على الذين يتّهمونها بانها لا تتبع الطرق العلمية في ابحاثها

ومع ان كثيرين من علماء النفس في العصر الحاضر يتبعون احدى هاتين الخطتين

(١) من خطبة الاستاذ وليم مكدوغل رئيس علم قسم النفس في مجمع تقدم العلوم البريطاني

وخصوصاً في الولايات المتحدة الاّ ان معظمهم يرى انهما لا تفيان بالغرض وسبب اتهاجهما انما هو فقد الشجاعة فقداً لا مبرر لهُ. ينظر دعاة الفلسفة التركيبية صرح العلم الطبيعي الفخم فينقبضون قليلاً ويأخذون يحدّدون لابحاثهم ميداناً خاصًّا ضيقاً يغزون فيه حتى لا يتعرضوا للباحثين في سائر العلوم الطبيعية ولا يتعرض لهم احد فيما يحسبونهُ علمهم الخاص. اما اصحاب الرأي الثاني فيطلبون السلامة في حظيرة العلماء ويحاذرون كل قول او عمل يجعلهم موضع ظن او ريبة

وهنالك جماعة ثالثة كبيرة تحركها الرغبة التي تحرك الجماعتين الاوليين ولكنها رأت ان كليتيهما لم تصلا الى الغرض المنشود وهو وضع علم للطبيعة البشرية والتصرفات الانسانية وان لا امل لها بالوصول اليهِ. فتجرب ان تتملص من القيود التي تقيدت بها الجماعتان السابقتان بالتوفيق بين وسائلهما وتأخذ وصف الوجدان التحليلي وسيلة وتقبل التعليل الميكانيكي وتجرب ان تبوّب هذه الحقائق لتظهر بمظهر علم ولكنهُ مظهر ناقص

فنشأ عن ذلك هذه الفلسفات او المذاهب المختلفة في علم النفس وما من مذهب منها يوصل الى الغرض المنشود كما تقدم فلنتعظ ولنتحذر. وليكن ذلك تذيراً لنا على ان سبيل الشجاعة والاقدام هو سبيل السلامة. لقد كثر علماء النفس فصاروا يستطيعون ان يتعاونوا ويؤلفوا فريقاً خاصاً بهم يحتمي بهِ من كان منهم غير شجاع . لقد آن لنا ان نطلب استقلالاً اداريًّا لعلمنا عن سائر العلوم وان نثبت حقنا في ان نطبّق عليهِ مبدأ تقرير المصير. وعندي ان هذه الخطة اي الخطة القائلة بان سبيل الشجاعة والاقدام هو سبيل السلامة تقتضيها الاحوال الحاضرة من ثلاثة وجوه فضلاً عن فشل الخطة القديمة

اولاً لدى علماء النفس الآن حقائق جمة جمعت من بحث الانسان في نفسهِ وحقائق جمعت من ملاحظة تصرفات الغير وهي في حاجة الى من ينظمها ويجعل منها علماً حيًّا لا ان يكتفي بتبويبها تبويباً ميكانيكيًّا

ثانياً لعلم النفس فائدة عملية في التعليم والطب والصناعة ومختلف العلوم الاجتماعية وكل هذه المواضيع تقتضي علماً في الطبيعة البشرية يختلف عن علم النفس المقصور على وصف حالات الوجدان او تعليل تصرفات الانسان تعليلاً ميكانيكيًّا او تبويب الحقائق النفسية تبويباً وضعيًّا

ثالثاً حالة العلوم الطبيعية الاخرى تؤيد ما في السير على هذه الخطة من الحكمة

وسأبسط فيما يلي بايجاز كلاً من هذه الوجوه الثلاثة اما اريد ان الفت نظركم الى مبدإ اساسي مرتبط بها ولا بدّ لنا من قبوله بلا تردد ولا تحفظ في السير على الخطة الجديدة وهو ان القصد موجود في كل اعمال الخلق . هذا مبدأ اساسي نافع لا بدّ منهُ ولذلك فهو مبدأ صحيح

حياة الانسان من مهده الى لحده سلسلة لا تنقطع من الاعمال المقصودة ففي بعض الاحيان يكون غرضهُ بعيداً مبهماً ليس لهُ في ذهنهِ سوى صورة عمومية. مثال ذلك حينما يجلس في مكتبهِ ليضع خطةً لحياتهِ المستقبلة او حينما يفكر في الشاء بيت او عائلة . وقد يكون غرضهُ جليًّا كما في ذهابهِ الى مطعم معيَّن ليأكل طعاماً يشتهيهِ ويجيد ذلك المطعم طبخهُ . وقد يكون هذا الغرض قريباً في تناولهِ مبهماً في تصوّرهِ كما يفعل الطفل حينما يبحث عن ثدي امهِ بفم مفتوح وحركات يظهر فيها الضعف والوهن او حينما يمدُّ الرجل يدهُ على غير قصد ليتناول قطعة حلوى وهو غارق في حديث لذيذ او مشتبك في مناقشة مهمة . والمقاصد تختلف اختلافاً كبيراً في قربها او بعدها ووضوحها او ابهامها كما تختلف الاعمال المقصودة في قوتها ولزومها ومقدار ما ينفق عليها من القوة والنشاط . ولكن مهما تكثر هذه الاختلافات او تقل لا بدّ من وجود القصد في جميع اعمال الانسان حين اليقظة وفي احلامهِ ايضاً كما ابان الاستاذ فرود . فاحلام الانسان وسائل لتحقيق اميالهِ الخفية او رغائبهِ المكبوتة. وجميع اعمال الانسان سلّم لا بدّ من وجود القصد في درجاتهِ العليا والسفلى كمظهر اساسي لها . ففي الاعمال التي تقابل درجات السلم العليا كالاعمال الفكرية المعقدة حين الاشتغال بحلّ مسألة مهمة محددة او وضع خطة خطيرة نشعر بالقصد في كل خطوة من خطواتنا الفكرية لانهُ يتناول جميع افكارنا واعمالنا. اما في الاعمال البسيطة فلا يستطيع البحث الداخلي او النظر في النفس ان يكشف عن القصد فيها منفصلاً عن العمل ذاتهِ ولكن سير جميع هذه الاعمال من اعلاها الى ادناها على نمط واحد يبرر القول بانها كلها من نوع واحد وانها كلها مقصودة

كذلك يأبى القصد الاّ ان يظهر في المختبرات النفسية التي تمتحن فيها افعال الانسان هل هي مقصودة ام غير مقصودة وتكون التجارب فيها مدبرة لكي لا يظهر

القصد فيها مطلقاً او يظهر فيها على وتيرة واحدة. وبعد ان تجاهل العلماء هذا القصد زمناً طويلاً كامل قوي في تلك الاعمال النفسية عادوا الى الاعتراف بوجوده ولكنهم سموهُ اسماء مختلفة سموهُ « الميل المجرَّد » او « العامل المحرك » او « الفعل المنعكس الاضطراري » وهلمَّ جرًّا

واذا امعنا النظر في المذاهب النفسية الثلاثة التي اشرت اليها سابقاً وجدنا ان العلماء المشتغلين بها يغضون كل الاغضاء عن هذا المبدإ الاساسي لانهم لا يستطيعون ان يدعوهُ حاسَّة او شكلاً نفسيًّا ولا يمكن رؤيتهُ ووصفهُ بمراقبة حركات اطراف الانسان او غيرها من اعضائهِ مهما تكن المراقبة دقيقة. واذا اغضى الباحث عن القصد جرياً على مبدإٍ اعتقدهُ او طريقة سار عليها فلا يستطيع ان يضيفهُ اضافةً الى صورة يتصوَّرها لطبيعة الانسان وذلك لان القصد موجود ضمناً في كل اعمال الانسان. ومثَل ذلك الباحث مثل مصوِّر صوَّر منظراً طبيعيًّا خالياً من صورة الجوِّ ولما اكمل صورتهُ اخذ مقداراً من الدهان ونشرهُ على وجه الصورة قائلاً هذه صورة الجوِّ هذه هي الصعوبة التي يلاقيها من نشأ على الفلسفات السابقة حينما نقول لهُ ان القصد موجود في جميع أعمال الخلق. اني أعلم ذلك عن ثقة من بعض الذين لم يستطيعوا الموافقة على ما جاء في كتابي « مبادي علم النفس » المبني على هذا المبدإ. على أن هؤلاء الباحثين لا يستطيعون ان يتوسعوا في فهم طبيعة الانسان وتصرفاته باعتمادهم على كتب تؤلف في وصف الانسان حسب احد المذاهب الثلاثة المتقدمة وبعد تأليفها يخطر على بال مؤلفها اضافة فصل عن « الارادة ». فاذا لم ينظر المؤلف الى الارادة والقصد اساساً لكل الحالات النفسية ففصل « الارادة » لا مكان لهُ في الكتاب. واذا تعلم هؤلاء الباحثون ان الانسان كتلة من الافعال العصبية المتعكسة أو آلة ميكانيكية راقية ترتبط اعمالها بمبادىء الوجدان ارتباطاً خفيًّا لا يدرَك لم يستطيعوا بعد ذلك ان يروا مكاناً للقصد في فلسفتهم اذ لا محلَّ لهُ عندهم ولا حاجة بهم اليهِ بل يرونهُ متطفلاً مقلقاً يعلق فهمهُ وتحليلهُ

ولكن لتأمل الباحث النفسيُّ في مظهر من مظاهر الحياة الانسانية حينما تتولاهُ رغبة شديدة ولكنها رغبة مكبوتة يصعب تحقيقها. ليذكر حكاية روميو وكيف كان يرغب في جوليت ولا يستطيع ان يحقق رغبتهُ. ليذكر كيف ان هذه الرغبة في رؤيتها وسماع صوتها ونمس يدها استولت على حياتهِ في اليقظة وفي

المنام . كيف اجرت الدم حاراً في عروقه وانحلته حتى صار كالخيال . كيف كانت تدفعهُ الى السعي للحصول عليها آناً يدفعهُ الرجاء وآناً يقعدهُ اليأس ولكن الرغبة تحرّكهُ في كل عمل يأتيه . ان اقوى العادات وارسخها اصولاً لا يحسب شيئاً في جنب هذا السيل المتدفع من القصد والرغبة نحو غاية الطبيعة المحتومة

افنستطيع ان نرسم صورة للحياة او ان نكتب وصفاً لها او ان نجيء بتعليل لتصرفات الانسان اذا تغاضينا عن هذا المظهر العام الذي ندعوهُ الميل او الرغبة او السعي نحو غاية من الغايات

***

وحينما نلتفت الى علم النفس العملي تواجهنا هذه الحقيقة ايضاً . ففي كل عمل من الاعمال نرى ان اكبر المشاكل هي المشاكل المرتبطة بطبيعة الانسان من حيث رغباتهُ وغاياتهُ . فعلى المعلم ان ينبه في تلميذهِ لذة ورغبة في العلم والارتقاء وعلى الطبيب المستشفي ان ينظر في غايات مريضهِ المتناقضة سواء كانت في وجدانهِ او عقلهِ الباطن ليستطيع ان يوجهها في الوجهة النافعة . ومدير المعمل يهمهُ ما يؤثر في عمالهِ من المؤثرات وما يرغبهم في العمل وما هي اسباب الحسد والنزاع والتذمر بينهم وما هي الآمال والمطامع التي تدفعهم الى العمل

كذلك المحامي والقاضي تهمهما معرفة النية والقصد والمسؤولية. ومثلهما السياسي والاقتصادي والفيلسوف الادبي فان عليهم ان يعنوا بغايات الاجتماع المتضاربة حتى يوفقوا بينها وينشئوا من ائتلافها اعلى مستوى للاجتماع

فعلم النفس الذي يتغاضى عن المبدإ القائل ان القصد يتخلل كل اعمال الخلق لا يفيد شيئاً في جميع هذه المواضيع لان معظم الموضوعات التي يجب البحث فيها حين الاهتمام بالشؤون الاجتماعية (كالنية والرغبة والارادة والمسؤولية والطموح والمثل الاعلى والباعث والسعي والاهتمام) تصبح عديمة المعنى اذا اغضينا عن هذا المبدإ او يكون معناها مبهماً لا يستفاد من ذكرها فائدة عملية